الأب ...

لجي دي موباسان

بقلم الأستاذ مراد الكرداني

تعلقها لحظة سنحت لعينيه . فقد كانت ذات جمال هادئ صارخ ، يتسلل إلى الحواس في دَهاء ولطف ، حتى إذا تمكن واستوى ، فعل فعله ، ودار فيها على طبيعته حنيناً ورغبة ونداء . ثم كان لزاماً عليهما أن يتراءيا كل صباح ، لأن عملهما كان يقتضيهما أن يهبطا باريس كل يوم مع الهابطين .

لم يكن يعرفها ، وما كان رآها ، إنما كان يجد نفسه في كل صباح جالساً تجاه فتاة جميلة ، سرعان ما أحبها ، وسرعان ما ألقت أنوثتها في ذهنه أنها امرأة وديعة لينة ، ضعيفة ، فشرع يغزوها

كان يحملق في وجهها ، وخديها ، ثدييها بشراهة عجيبة . وكانت إذ تدرك منه ذلك تحملق فيه ، فلا يرد عينه عنها ، فتضطرب ، ويصعد الدم وفيراً إلى وجنتيها ، فتزداد جمالاً وفتنة، فيزداد هو شوقاً ورغبة ...

ولا يدريان : لا هو ، ولا هي ، هل كان واحد منهما يحرص أن يكون جار صاحبه في مقعد المركبة كل يوم؟ أم هي مصادفة ساقها القدر وفقت أن يلتقيا هكذا أسبوعاً كاملاً ؟ . . . كان لا مفر بعده من أن تجري بينهما بضعة كلمات خفاف قصار في ابتسامة أخف وأقصر ، لعلهن كن تمتمة شكر لقاء أن آثرها وأجلسها في مكانه في يوم كانت المربة فيه ملأى بركابها . . .

وفي اليوم التالي تصافحا يداً بيد ، ثم تكلما ، ثم تصادقا ...

ثم كانت له برغم ذلك شاغلاً يملأ خلايا مخه طول يومه وسواد ليلته ، إلى أن يلقاها ... وإنه ليرقب مشرق وجهها على فؤاده بشوق وحنين ، وإنه ليفكر في نصف الساعة التي ينعم فيها بها ، حتى إذا بلغا غايتهما، وآن لهما أن يفترقا ، شعرَ بفراغ هائل بداخل نفسه؛ وتعاظمته تلك القسمة الحرام التي قسمت له من زمان حبيبته جزءاً واحداً من ثمانية وأربعين جزءاً ...

لمسافة بعيدة حيث نتمكن من رؤيته كله . ولهذه الحقيقة ما يؤيدها تاريخياً وهو وجود حيوان يسمى بالدينصور الذي زعم المؤرخون أنه كان هائل الجسم والبطش إلا أنه انقرض بفعل الثلج في العصور الجليدية . وكذلك الحيوان الذي يقال بوجوده أيضاً ويسمى بالتراخودن من فصيلة الدينصور ، ويقدرون قوته وسرعته بأنه يقطع مسافة سبعة أميال بخطوة واحدة من خطاه . وفي البحار ما يقارب هذه الحيوانات كالحيتان ، فنها ما يقابل - تقريباً - في الكبر الأميبا في الصغر

ولا شك أن الحيوان الذي يتمم هذا التقابل قد وجد ورتع يوماً ما على ظهر الأرض وسوف يكشف عنه العلم والتاريخ يوماً ما .

هذه حقائق يمكن أن نتلمسها بالفكر والنظر البعيد . كما أنه من الممكن بهذا القانون التنبؤ بنظريات واقعية تجري مبادئها مجرى العمل في كل مضمار من مضامير العلم . وأعتقد اعتقاداً راسخاً أن العلم السائر دوماً إلى الأمام سوف يبرهن عليها بقوانينه وحسابه وملاحظاته وتجاربه إن لم يكف قانون نيوتن الثالث للبرهنة عليها بصورة حاسمة

كما لا شك في أن ما نجده من تناقض واختلاف — حسب ما نعتقده — سواء في مجرى الأحداث الطبيعية أو شتى شؤون الحياة المتنوعة أو طباع الناس وأخلاقهم ، لا نجد له تعليلاً منطقياً غير الرجوع إلى هذا القانون . ولو نجحنا في بعض الأحيان في إيجاد تعليل إلا أن المصدر الأعلى الشامل لتعليل جميع ما نرى من متناقضات وأضداد في مجرى الطبيعة والحياة اليومية وسَيْر التاريخ العام هو هذا القانون الخالد ما خلد صاحبه

(نابلس) ابرهيم زكي أباظة

ولما تو ثق ما بينهما اشتهى أن يكون وإياها رجلاً مع امرأة ؛ ولعلها اشتهت مثلما اشتهى لأنها قالت له فى صباح يوم سبت من أيام الربيع ، وهما يتواعدان أن يلتقيا غداً فى مطعم فاخر :

— قبل أن نذهب أحب أن أقول لك كلمة ، وأمامنا عشرون دقيقة نستطيع أن نقول فيها كلمات ...

وتغافل هو عما أحسه من اضطراب جسمها واهتزاز ذراعها فى ذراعه وهى تلقى إليه قولها ، قالت فى صوت خافت :

— أحب أن تعلم أنك ستطوى نهارك مع فتاة شريفة لا تحب أن تذهب مع رجل حتى يتعهد باحترامها ...

وتوهج خدّاها وحرّت أنفاسها وتمنّت اضطرابها ، فلم تعد تملك أمر نفسها فسكتت ، وسكت هو لا يدرى ماذا يقول فقد كان فى حسابه أنه سيمتع نفسه بكل ما يمكن أن يفعله رجل يحب فتاة . وإذ لم يحُر جواباً ثنّت هى تقول :

— إننى لن أذهب معك حتى تتعهد باحترامى

* * *

ولما برحا المطعم الموعود سارا معاً على ضفة النهر يمتعان أعينهما بالماء الحالم فى هدأة الأصيل وبالجو السجسج الدافئ . وكانت لمعة الضوء تتكسر على صفحة الماء الجابى ، والأسماك تتواثب وتتلاعب ثم تنغمر فى الماء . وأشعة الشمس تسيل فتصبغ الماء والحشائش والأفق بلون رهيب . . . كان كل ذلك يزيد من جمال النهر ويكسبه روعة وجلالاً

وتفاعلا فى روعة هذا الجمال الصافى فراحا يلعبان ويثبان . وراحت هى تشتبك فى ذراعه ثم تتركه لتدفعه من ظهره . ثم تجرى منه ضاحكة ثم تؤامنه لتنحنى فتجمع له الزهر النامى على حافة النهر وتقدمه له أو تلقيه فى الماء . وظلا هكذا — كطفلين غريرين — حتى جرت دماؤهما . ثم سارا هادئين لحظة لأنها بدا لها أن تقول له :

— ماذا تظن فىّ وقد جئت معك منفردة !

— إن هذا أمر عادى مألوف

— لا . ليس عادياً ولا مألوفاً ، ولكنى مع ذلك لا أظن أننى أكره مثل هذا الطيش ، ولى أم مريضة ومتعبة كانت أولى بوقتى هذا ، ولم يكن يليق أن أتركها وألهو ولكن ... ولكن أرجو ألا تسىء بى الظن

ولم يكن لديه جواب لهذا الخلط الذى لم يفهمه سوى أن مال عليها فقبلها قبلة أخطأت خدها وأصابت أذنها . فنفرت منه كظبي مذعور وتغاضبت عليه . ولم تطل . . . بل أقبلت عليه تذكره بوعده لتمهد أن يعودا — كما كانا — مرحين لا عبين

وكان الهواء قد رق وصفا . وسرى عطرىٌّ الروحة والغدوة يحمل فى طواياه هبته شذاً قوياً يدير الرأس حين يدور فيها عند ما بدت لهما من بعد حديقة لفاء يحبو تحتها ماء النهر، وتذهب ذراها أشعة الشمس الغاربة ، كانت تبدو من بعد كسرادق مظلم أو ككهف عظيم . ولما قارباها أخذت هى تحدّق فيها بعين بارقة مفتوحة ، وقالت فى صوت خافت كأنه يأتى من أعمق أعماقها

— ما أجملها ... ما أجملها !

ولما اقتحماها وسارا فيها بلغا فيها خباء بين دوحتين فارعتين لا تبلغه العين ، ولا يبلغه الضوء ، إلا قِطعاً نُثاراً كنقوش الثوب، وملأت رأسيهما فيه ريحٌ عطرة مثيرة قوية ! فجلسا حالمين تائهين ... ثم تقاربا فى بطء وسكون ، ثم تضاما ، ثم عصفت بهما نار الرغبة فلم تملك إلا أن تحسس فمه بشفتيها . فجعل يعتصرها بجنون ، ويضمها إلى صدره بشوق وقوة وعنف ، وقد غابا ونسيا نفسيهما ... !

* * *

ولما أفاقت لم تكن تريد أن تصدق ... ثم أخذت تصيح وتصرخ . . . ثم هدأت لتبكى . . . ثم لما فرغت لم ترد أن تسمع لكلماته وهو يفرغها فى أذنيها ليخفف عنها ما بها من جزع وأسى ، بل جعلت تهتف فى صوت خافت ضعيف :

— رب ماذا فعلت ... ماذا فعلت !

وساوره الخوف والفزع مما رأى من حمرة خديها وعمق عينيها وجعل يرتعد وهو يرجوها أن تبقى ليتفاهما ، وليدبرا الأمر على

قانون الواقع ولكنها تركته دون كلمة أو وداع ...

* * *

ولما لقيها فى اليوم التالى ألفاها ساهمة شاحبة ظاهرة الأسى ، كأنها خالصة من أعقاب مرض طويل أضناها وذوَّب قواها . قالت له حين تصابحا فى همس :

— أريد أن أتحدث إليك قليلاً ...

ولما انفردا قالت له فى ألم وجد :

— إنه ليحسن بنا أن نفترق ، فإن من الخير ألا نلتقى بعد ذلك ، وبعد الذى كان لا أحب أن أراك لأننى كنت ضعيفة ومجنونة، فليس هناك ما يبرر أن أعود لهذا الجنون وذلك الضعف مرة أخرى !

فجعل يتوسل إليها أن تلحق به وهو يؤكد لها أنه سيصلح ما أفسده . وأنه سيتزوجها إن شاءت ومتى شاءت ولكن عبثاً ما حاول فقد رفضت أن تسمع له وتركته ومضت

ولم يعد يراها . ومر أسبوع وأسبوع ، ولم يكن يعرف مأواها ، ولعله أيس منها أو لم يقطع فى أمرها بأمر ، لأنه ذهب مرة يفتح الباب لطارق فوجدها هى . وأثلج صدره أن شعر بها فيه ، تملأه وتهدهده ، ورأى ذراعيه قد التفتا عليها ، وجعلتا تضغطانها فى رفق وشوق ...

وعاشا معاً ثلاثة شهور شعر بعدها بالملل منها ، فتهابط حبه لها وشغفه بها ، ونقصت رعايته إياها وعنايته بها ... ثم تَجبُن وتَساقل حين ذكرتْ له أن جنيناً يتواثبُ فى أحشائها فكأنما كان هذا النبأ عصاً ألهبته ، لأنه فرّ من وجهها مسرعاً لا يلوى . واختفى ... لا حذرها ولا أخبرها إلى أين ... ولا هى ارتضت لنفسها أن تبحث عنه

لقد طاوعت كبرياءها فلم ترد أن تفعل ، ولم تجد فى وُسع عينيها سوى أمها ... فتهاوت فى صدرها حزينة باكية تشكو لها بثها ، وترجو عندها الستر والصفح والسلوى ...

***

وفى الجانب الآخر عاش الخاطئ المسكين عيشة مضطربة قلقة سمجة ، لا معنى لها ولا غناء فيها ... عاش وحيداً منعزلا ، لأن عليه أن يعيش ... كانت الدنيا فى عينيه مظلمة قاتمة سخيفة لا خير فيها . ولو لم يكن لديه إلا عمله يرى فيه بضعة وجوه لمات كمداً ومللاً ... فتخامد شبابه وانطفأ نور حياته فى حضيض خطيئته . وغدا على الدنيا شبحاً يود لو ينتهى

وكان يقسو عليه ألمه أحياناً فيضيق بوحدته فيخرج فى آصال أيام الأحد ليسير ثقيلاً متباطئاً ، وما هى إلا خطى معدودة حتى يجلس ملولاً ضيق الصدر ، ليرى الأسر السعيدة مغتبطة هانئة بأطفالها التى تجرى حولها بوجوه ضاحكة مستبشرة . وكان هذا المرأى فى ذاته يزيد ألمه وحزنه ، ويسلمه إلى شعور عنيف يستبد به فيشعر أن قلبه ينسحق تحت معول ضخم ، فلا يملك لنفسه إلا أن يطرق ويصمت

وفى ذات صباح وكان يسير شريداً مضيَّماً ، لمح امرأة تتهادى بين طفلين يلعبان حولها، أما أحدهما فطفل لم يجاوز الرابعة، وأما الثانى فغلام تشرّف على العاشرة

اهتز حين رآها وداخله نحوها شعور ما ، ولما لم يكن مخطئاً جمد ولم يستطع حراكاً ، فقد فَقَدَ هيمنته على نفسه ، ولم يعد إلا عيناً تدور وراءها وتتابع حركاتها . وازداد يقينه حين شعر بحنين عنيف يثور فى صدره نحو أكبر الطفلين عند ما التفت مرة فوضحت ملامحه ...

فى تلك الليلة لم ينم ، فقد سهّده أمل أشرق ثم خبا . فبات فريسة تفكير مضن طويل : تُرى هل هذا ابنه ... وهل هى هى ... ؟ وإذا كان فماذا أستطيع أن أفعل ... ؟

وزاد بلاؤه أن طمس على ذهنه فلم يدر ماذا يستطيع أن يفعل ... ولكنه عَلِمَ أن عرف أنها تزوجت رجلاً من جيرتها وكان شهماً فاضلاً غفر لها واعترف بابنها وعُنى بهما ...

وكان إشراق وجه ابنه فى سماء حياته المظلمة ألماً جديداً فوق آلامه ، إذ أشعره ذلّ الوحدة وعذاب الحرمان ، فاضطرب اضطراباً شديداً ، وامتلكه اليأس والأسى ، وأصبح لا يرجو إلا أن يضم ابنه إلى صدره ويقبله ليشبع منه شوق السنين، وليطفئ

لوعة الحرمان التى شبت فى نفسه فقطت آلامه جميعها

وقام فى ذهنه أن يعترض طريقها ، فأسرع نحوها فأخذها من كتفها ؛ فلما التفتت إليه صرختْ صرخة رعب مكتومة ، وحنَتْ على ولدها فطوّقتهما وأسرعت تجرى بهما

ومر شهران يئس فيهما أن يراها أو يرى ولده . وحنق على نفسه أن حرمها رؤية ولده ولو عن بُعد . فجعل يكتب لها . . . كتب لها نحو عشرين رسالة لم يتلقّ رد واحدة منها ! فأحس مرارة الخيبة تمور فى ألم الحرمان فترهقانه وتعذبانه عذاباً أليماً

ولما يئس أن يراها فكر وقدّر ، ثم فكر وقدر ، فلمعت له فى ظلمة يأسه خاطرة هى أن يكتبَ لزوجها... ولما جاءه الرد أنه يسره أن يلقاه فى مساء يوم معين لم يكن بأسعد حالاً مما لو كان أهمله كما أهملته هى من قبل . فقد كان دَقَّ قلبه — وهو يصعد الدرج — سريعاً مزعجاً . وكان ينتزع رجليه انتزاعاً ويراود نفسه — وهو صاعد — أن يرجع !

وكانت ثيابُ الرجل السود ورهبته فيها وسحنته المتزنة الوقور التى طالعه بها . . . كان كل ذلك قد خلع قلبه وطير ما بقى له من قوة واتزان . وحين أشار له الرجل أن يجلس ، جلس متداعياً مذهوب العقل ، ضائماً ...

قال الرجل فى لهجة عميقة ورنة آسفة :

— إن زوجتى حدثتنى عنك ...

فرد يقول فى صوت خفيض متقطع :

— إننى يا سيدى غير سعيد لأننى لا أستطيع أن أرى ولدى

وهب الرجل فنادى ... فدخل غلام فى نحو العاشرة مسرعاً إلى الرجل الذى يعيش معه على ظن أنه أبوه ... ولكنه وقف فجأة حين انتبه إلى أن بالحجرة رجلاً غريباً ...

وقبله أبوه قبلة كلها حنان وعطف . وقال له مشيراً :

— إذهب وقبل هذا السيد الجالس هناك . وسار الطفل نحو « السيد الجالس هناك » وديعاً خجلاً ، ضيق الخطى . وأحس هو — وطفله مقبل عليه — أن دُوَاراً شب فى رأسه حين نظر إلى عينى ابنه وهما تطالعانه وتنظران إليه

وقام الرجل (صاحب البيت) فدار على نفسه واتجه صوب النافذة ، حين وافى الولد أباه ، وحين فتح له هذا ذراعيه فاحتواه فيهما ، وحين أخذ يقبله بجنون فى شعره وعينيه وخديه وفمه وذقنه وكل وجهه ، وحين انزعج الطفل من هذه القبلات العنيفة وأراد أن يتحاشاها ويبعدها عنه ، وهو يدير رأسه إلى كل ناحية ليتخلص منها فلم يستطع ، لأن الذراعين اللتين أحاطتا به قد تصلبتا عليه ... ...

.... ثم تراخيا عنه ، لأن رقة قلبه شاعت فى كل جسمه ، فرَحمه وتركه ، ليمسح دموعاً انسابت من عينيه ، ونهض صارخاً يقول :

— وداعاً ...

وأسرع فنزل الدرج قافزاً كالهارب ، وحين احتواه الطريق انغمر فى الظلام كاللص .

مرار الكردانى

يصدر بعد أيام

الشيخ على الطنطاوى

فى بلاد العـــرب

صور طبيعية — ومواقف وطنية — ومشاهد اجتماعية — دمشقية — ولبنانية — وفلسطينية — وعراقية — وحجازية

بأسلوب يلذ الأديب ، وينفع الطالب ، ويرضى المؤرخ

فى أكثر من ٣٠٠ صفحة — تنشره المكتبة الهاشمية بدمشق

يصدر بعده ثلاثة كتب للمؤلف :

(صور وخواطر) ، (من التاريخ الإسلامى) ، (فى سبيل الإصلاح)